من اعجب ما قرأت فى تاريخ الأدب المسرحى

للأستاذ دريني خشبة
الأستاذ بالمعهد العالى لفن التمثيل العربى

(١)

فى تاريخ الأدب المسرحى حقائق تشبه الخيال ، ولعل أولى هـذه الحقائق وأقدمها جميعا ، أن مصر التى تجاهد اليوم صادقة فى خلق مسرحها القومى ، كان لها مسرح قومى دينى منذ خمسة آلاف وخمسمائة سنة ، كما كان لها كتابها المسرحيون ونقادها المسرحيون منذ ذلك التاريخ ، فقد اكتشفت حديثا الدرامة المنفية ، أو تمثيلية بدء الخليقة التى ترجع الى زمن الملك مينا ، كما اكتشفت ألواح حجرية تثبت وجود النقد المسرحى فى مصر منذ ذلك التاريخ أيضا .

ولعل الفتاة المصرية هى الفتاة الأولى فى العالم كله التى كان لها شرف التمثيل المسرحى فى هذه الدرامات السحيقة فى القدم ، والتى لم تكن تؤدى فى مسرح مبنى خاص ، بل كانت تمثل فى المـدينة كلها ، وعلى شاطئ النيل أحيانا ، وان كل جزء كبير منهـا يمثل داخل الهيكل ، أو معبد المدينة .

ومن أظرف ما أثبته تاريخ الأدب المسرحى فى مصر القـديمة أن حضرات أصحاب الجلالة والسمو ، الفـراعنة والأمراء ، كانوا يقومون أحيانا بأدوار الملوك والأمراء فى هذه التمثيليات ... فعندما كانت تمثل درامة التتويج — أو تمثيلية تتويج الملك أوسرتسن الأولى ، ابن الملك امنحت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وذلك فى عيد جلوسه على العرش من كل عام ، كان يضطلع هو أحيانا بدور الملك ، كما كان أكبر أمراء الأسرة المـالكة يقوم بدور الملك المتوفى ، وكان معظم الأمراء يشتركون فى التمثيل ، كما كان يشترك فيه كبار الكهنة .

(٢)

أما تاريخ المسرح اليونانى ، الذى يلى المسرح الفرعونى فى القدم ، فملىء بالعجائب حقا ... ولعل أولى هذه العجائب بالذكر هى عجيبة الاخراج ... اذ كان الشاعر ، أو المؤلف المسرحى ، يعرض نفسه وأدبه وفنه على أحد أغنياء أثينا لينهض عنه بمصروفات الاخراج ، فيتعهد هذا الفنى بالنفقة على جميع أعضاء الفـرقة التى كانت تتكون من واحد وخمسين شخصا ، منهم الممثلون الثلاثة الذين يؤدون الأدوار الرئيسية ، ثم أعضاء فرقة المنشدين ، أو الخورس .

ولعلنا نعلم جميعا أن الدولة الأغريقية فى عهد بيركلس كانت تدفع أثمان التذاكر لشهود التمثيل ، وكان ثمن التذكرة زهيدا لا يزيد على أوبولين أى أن ثمن التذكرة لم يكن يتجاوز القرشين ونصف القرش الا قليلا ... وذلك لتشجيع الاثينيين جميعا على شهود التمثيل الذى كانت تعده المعين الأول للثقافة الشعبية ، والمعهد العالى الذى يتولى التهذيب والترتيب ... كلنا يعلم ذلك ... ولكن الذى عجبت له أشد العجب ما قرأته من أن الدولة كانت تشتد فى مؤاخذة الذين يهملون شهود التمثيل ، وأنها كانت تنذر المتخلف مرة واحدة ؛ وتعزر من يتخلف مرتين ، ثم تحبسه ثلاثة أيام اذا تخلف عن شهود التمثيل ثلاث مرات ! !

ومن أطرف ما نجده فى تاريخ المسرح اليونانى تخصيص يوم من أيام التمثيل فى أحد الأعياد الدينية القومية ، يمنح فيه الشعراء الكوميديون — أو ممثلو الملاهى ، الحرية التامة المطلقة فى نقد رجال الحكومة وتجريحهم والسخرية بهم ومصارحة الشعب بمساوئهم . بشرط ألا يجرحوا مشاعر ممثلى الدول الأجنبية ، وألا يسيئوا الى علاقة أثينا باحدى تلك الدول ، فكانت هذه وسيلة من وسائل الديمقراطية الأثينية فى تقويم اعوجاج الزعماء السياسيين ، فكانوا يعملون لها ألف حساب !

(٣)

ويفيض تاريخ الأدب المسرحى اللاتينى بالمضحكات العجيبة . ففى أواخر القرن الأول المسيحى انحطت المهازل الإيمائية — أوال انحطاطا خلقيا كبيرا ، فلم يكن مؤلفو هذه المهازل ، وممثلوها ، يعنون بشىء عنايتهم بمغازلة غرائز الجمهور الدنيا ، فغلوا فى عرض مناظر الفسق فى أبشع صورها ، وعرض مناظر التعذيب اذا كان سياق المهزلة يستدعيها . . . وهنا . . . كانت الدولة تصرح لمدير المسرح باستعارة أحد المجرمين ، ممن حكم عليهم بالاعدام مثلا ، ليمثل به فوق المسرح أخس ضروب التمثيل ، فيضرب ، ويطعن بالخناجر ، أو تفقأ عينه ، أو تصلم أذنه ، أو يبتر أحد أعضائه . . . . والجمهور بين هذا وذاك يضج بالضحك ، ويتلهى بهذه المناظر الدامية .

وليت الشر وقف عند هذا الحد . . . فقد كان المديرون يستخدمون بنات الهوى فى القيام بأدوار المجون والعشق الأسود ، لأنها من عملهن الطبيعى ، ولأن المهازل الايمائية كانت تغنى فيها الحركات والاشارات عن الحوار وعن الكلام ، مما تجيده بنات الهوى وتختص به ، مما أفزع رجال الدين الجديد وأقض مضاجعهم ، وما جعل كلمتهم تتفق على محاربة المسرح ، صالحه وفاسده ، وقد أشد الامبراطور قسطنطين أزرهم حينما قرر أن

تكون المسيحية دينا رسميا للامبراطورة الرومانية فى أوائل القرن الرابع فوضعوا قرارا بحرمان كل ممثل يجرؤ على اعتلاء المسرح ، ليفتن المؤمنين عن دينهم الجديد بالترويج للوثنية القديمة والدعوة لها .

ونشط رجال الدين فى الامبراطورية الرومانية الشرقية كذلك لمحاربة المسرح الذى اكتسحت موجة المهزلة الايمائية اكتساحا ساحقا هو الآخر، وكانت أمهات المدن فى هذه الامبراطورية عامرة بمسارح كبيرة لا تقل عن مسارح رومه والمدن الايطالية الكبيرة الأخرى ، فكانت مسارح القسنطينية وأنطاكية وغيرهما تعرض أحط ضروب هذه المهازل وأشنعها ، مما هوى بمنزلة الممثلين والممثلات وأزرى بمقدار المسرح ، وجعله خطرا قوميا عاما على الأخلاق ، فاستصدر رجال الدين من الامبراطور أمرا يقضى بمنع زواج أعضاء مجلس الشيوخ وكبار رجال الدولة من الممثلات ، حفظا لكرامة المناصب ! !

وبالرغم من جهود رجال الدين فى محاربة المسرح فى كلتا الدولتين الرومانيتين الشرقية والغربية فقد ظل إقبال الشعب على شهود المهزلة الايمائية الماجنة على أشده ، وكان الحكام أنفسهم يمدون ظل رعايتهم على هذا المسرح المنحط ضد رجال الدين . ومن أطرف ما حدث فى أواخر القرن الرابع ، أنه عندما حدثت تلك المجاعة المهلكة فى رومة فى ذلك العهد . وأخذ الناس يهاجرون من المدينة إلى الأرجاء الغنية من ايطاليا حيث تتوفر الأقوات ، خاف رجال الحكم من أن يهاجر الممثلون والممثلات فأصدروا أمرا بمنع ثلاثة آلاف منهم من الهجرة . بحجة أنهم ضرورة من ضرورات الترفيه الشعبى الذى لا غنى للأهلين الجياع عنه فى هذه المجاعة المرعبة . وقد كان هذا الأمر مصدرا لذلك الرق الذى فرض على الممثلين فرضا بعد ذلك التاريخ ، فلم يكن أى ممثل يستطيع أن يترك مهنة التمثيل إلى مهنة أخرى ، بل لم يكن لأبنائهم حرية اختيار المهنة التى تروقهم ، إذ كان مفروضا عليهم أن يكونوا ممثلين كآبائهم . وهل رق بعد هذا الرق ؟ !

وقد أنقذ الممثلين من عبودية التمثيل رجل من رجال الكنيسة هو القديس أمبروز إذ استصدر أمرا يعفى كل من اعتنق المسيحية من الممثلين من رق التمثيل ، فتكون له ولأبنائه حرية اختيار المهنة التى يفضلها .

(٤)

ومن طرائف تاريخ النهضة المسرحية — فى انجلترا على الخصوص — هذه المزادات التى كانت تجرى بين أحياء المدينة الواحدة ، لتقرير الجهة التى تمثل فيها درامات ذاك العهد ، أى فى القرن الخامس عشر المسيحى ، فقد كان الشارع هو مكان التمثيل ، وكان الناس يحتشدون من كل مكان للتفرج وتزجية الوقت ، فلما اشتد اقبالهم على شهود التمثيل ،

انتهز مديرو الفرق تلك الفرصة ، وابتكروا تلك المزادات ، فكانوا يتوجهون بقائمة المزاد إلى معظم أغنياء المدينة ، وكان الغنى الذى يدفع للفرقة أكبر مبلغ هو الذى يفوز بتمثيل الرواية أمام منزله ، وحدث ما شئت عن روح الحيلاء التى كان ذلك الغنى يشعر بها عند ذاك ، إذ كان يجلس مزهوا منتفخ الأوداج فى طنف منزله ، ومن حوله ضيوفه ومدعووه ، وأهل منزله ، وقد غص الشارع بنصف سكان المدينة على الأقل ، وهم وقوف طول مدة التمثيل ، والغنى يجيل فيهم ناظريه كأنهم رعاياه !

ومن أعجب الشخصيات الأدبية التى يعمر بها تاريخ المسرح الاسبانى فى عصر النهضة شخصية الكاتب والشاعر المسرحى الأشهر لوب دى فيجا . . الذى كان آلة ولكن من دم ولحم ، للانتاج المسرحى . . . فقد كتب هذا الشاعر العجيب ألفا وثمانمائة دراما مثلت كلها على المسرح الاسبانى . . . وكتب أولى دراماته الرائعة وهو فى سن الثالثة عشرة .

(٥)

وننتقل الآن نقلة واسعة تصل بنا إلى الأدب المسرحى الحديث ، ولنقتصر على ذكر بعض الطرف الغريبة فى المسرح السوفياتى ، إذ أوشك الوقت المقدر لهذا الحديث أن ينتهى . . . ونحن لسنا من أنصار الفن المسرحى فى روسيا السوفياتية ، لأن معظمه يهدف إلى الدعاوة وإن عنى أحيانا بالفن المجرد من الغاية السياسية . . فمن يصدق أن فى روسيا اليوم أكثر من سبعة وعشرين ألف دار للمسرح ؟ ! ومن يصدق أن روسيا كانت ترصد للمسرح من ميزانيتها أكثر مما ترصد للنشآت العامة ؟ ومن يصدق أن فى روسيا جملة شعوب اسلامية لها مسارحها وكتابها ونقادها المسرحيون الذين تباهى بهم روسيا أقدر الكتاب والنقاد المسرحيين فى العالم كله ! . . . ومن يصدق أن فى باكو على بحر قزوين ، مسرحا اسلاميا لا يقل فخامة ولا إنتاجا ولا فنا عن أرقى مسارح أوربا .

ومن يصدق أن قبائل الغجر فى روسيا لم تكن لهم كتابة ولا لغة أدبية حتى سنة ١٩٢٦ ، أى من منذ تسع عشرة سنة ، فزارهم فى تلك السنة عالم روسى ، فوضع لهم ألف باء لغتهم ، ولم يلبثوا هم أن أقبلوا على تلك الأبجدية العجيبة فتعلموا الكتابة بها ، ولم تمض سنوات عشر حتى أخذ جيل من أدباء الغجر يظهر فى روسيا بقصصه ومقالاته ودراماته ، وإنه لم تأت سنة ١٩٣٢ حتى أنشئ أول مسرح غجرى فى روسيا ، وأن للغجر اليوم تسعة وعشرين مسرحا من أرقى المسارح الروسية ، وأن لهم أكثر من ثلاثة آلاف دراما مشهورة ، كثير منها بالشعر ، وكثير منها شق طريقه إلى المسارح الروسية ، بل بعضها يمثل اليوم فى مسارح كمتشتكاف أقصى طرف سيبيريا الشرقى .

هذا قليل من كثير مما يطالعنا به تاريخ الأدب المسرحى ، الذى هو من تاريخ الانسانية فى مختلف مدارجها .

دريني خشبه